الاتجاهات الحديثة
في الإسلام

للأستاذ
محمد بهجة الأثري

المطبعة السلفية - ومكتبتها
٢١ شارع الفتح بالروضة. تليفون ٨٩٨٣٦٤

الاتجاهات الحديثة
في الإسلام

للأستاذ
محمد بهجة الأثري

المطبعة السلفية - ومكتبتها

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة

بينَ يدَى هذا السِّفر النفيس

الاتجاهُ الجماعيُّ في الإسلام، من صميم الإسلام، بل هو الاسلام

إن الاسلام ـ فى ذاته ـ دينُ جماعة، يقوم على تحرِّى السَّداد والمقاربة فى الحياة الدنيا، وحياة الخلود

وجماعات الاسلام قبلة واحدة يتمرَّنون على تحرِّى السداد بتحرِّيهم السدادَ فى الاتجاه إليها، آناء الليل وأطرافَ النهار

والمجتمع الاسلامى رُسمت لاتجاهاته سُنن عُيِّنت، ودُوِّنت، وجُرِّب العمل بها مائتى سنة، فكان نجاحُ التجربة معجزةً من معجزاتِ التاريخ الانسانى. وهذه السنن ـ فى جملتها وتفصيلها ـ تأخذ بأيدى أفراد المسلمين وجماعاتهم ودولتهم إلى البدء ـ فى كل شىء ـ من أول الخط المستقيم، وتحرِّى الوصول إلى آخره على الجادَّة، وهم يدعونَ الله فى كل يوم مرّات ومرّات: ﴿ اهدِنا الصراطَ المستقيم ﴾

كانوا ـ أفراداً وجماعات، رجالا ونساء ـ يطلبون من ربهم، فى داخل صلاتهم وخارجها ـ هذه الهداية إلى الصراط المستقيم، بقلوبهم قبل ألسنتهم، وكانوا على بيِّنة مما يطلبون، ويتصوَّرون معانى هذه الألفاظ الثلاثة كلما تحرّكت بها ألسنتهم، واستمرّ ذلك فى البطون الثلاثة الأولى للاسلام، وهى المدّة التى انتشرت فيها دعوة «الصراط المستقيم» بسرعة الصوت من مآذن التوحيد فى قارّات الأرض التى كانت معروفة لذلك العهد، فسعدت شعوب الأرض بالانضمام إلى هذه الدعوة وأهلها من العرب الأولين، واعتزّ المشارقة والمغاربة بالولاء لهم، والانتماء لقبائلهم، فكان ذلك من أولئك وهؤلاء ولاء على الحق، وتعاونا مثاليا

فى سبيل الخير ، بل اندماجاً فى العروبة وسننها وتغنيــاً بالعربية وبيانها ، لا يعرف التاريخ نظيراً له فى أمة أخرى

كانوا هم الناس ، يوم كانوا قائمين بذلك ، ومتعاونين عليه ، ومقتنعين بأنّ الطريق المستقيم أقربُ الطرق ، وأقصرُها وأيسرها ، الوصول إلى الهدف العام ، ولتحقيق المصالح الجزئية

ولما اختلطوا بالأمم ، واختلطت بهم الأمم ، فأخذت عنهم وأخذوا عنها ، اندسّ فيهم أبالسة فشلوا فى تحطيم هذه الدعوة بالقوة ، فزعموا أنهم انضموا إليها ، وأنهم صاروا من حماتها ، فاخترعوا لأهلها شيعاً ومذاهب متشعبة فى « بنيّات الطريق » ، وأقنعوا من أقنعوه منهم بأن « التخريم » فيهــا أقرب — فى الوصول إلى الأهداف — من التزام الصراط المستقيم . وترتب على ذلك أن صار كثيرون من المسلمين يقولون لربهم فى صلاتهم « اهدنا الصراط المستقيم » وهم غير مقتنعين فى قلوبهم بأن « الصراط المستقيم » أسرعُ من « بنيات الطريق » فى إبلاغهم أهدافهم وتحقيق مصالحهم . ويومئذ تفرّق المسلمون شيعاً فى الأصول قبل الفروع ، وتوغلوا فى الطرق الصوفية وغير الصوفية ، وصار لمجموعهم لونٌ آخر غير اللون الذى كان للجماعة الأولى التى فتح الله لها الفتوح ، وطوّع لرسالتها قلوب الأمم ، وللغتها ألسنتهم ، من زمن الصحابة إلى زمن التابعين و التابعين لهم بإحسان

هنالك استعجم الاسلام — كما يقول الشيخ محمد عبده — وتحوّل أهله من « أمة صدق » لأن الصدق من لوازم الصراط المستقيم ، إلى أمة ترى فلاح جماعاتها ، وبلوغ مقاصد أفرادها ، بالتفنن فى الأساليب الملتوية ، والدعوة للطرق المتشعبة ، والتعصب للشيع المتضاربة

إن للمسلمين قصة طويلة فى حيرتهم بين « الصراط المستقيم » و « بنيات الطريق » تتفاوت عواقبها وعقوباتها سعةً وضيقاً ، استمرت أكثر من ألف سنة

ودراسة هذه القصة، ومراقبة تطوُّرهـا على أيدى الأبالسة الذين حوّلوا المسلمين عن الطريق الأعظم إلى بنيات الطريق، تقتضى كتابة تاريخ الإسلام وأهله من جديد، ولا يقدر على ذلك إلا رجال أخلصوا النية، ومحّضوا الحبَّ لدعوة الإسلام الأولى كما هى، وعاشوا مع عصور الإسلام كأنهم كانوا من شهودها فى جميع بيئاتها. وعلماؤنا اليوم بين مشتغل بالعلوم الاسلامية فى نطاق ضيق، ولم يتسع وقته لتنوير بصيرته بما يتقلب على الأمم من أسباب النهوض والانحطاط، وما يؤثر عليها من الدعايات والدسائس التى تغير مجرى تاريخها. وبين متعلم بالمناهج الأجنبية التى أبعدته عن فهم ماضى أمته وأصل دعوتها، ودقائق سننها التى كوفئت عليها من الله بالخلافة على الأرض، ثم ما طرأ على ذلك من أسباب الضعف المدسوسة أو غير المدسوسة. فلم تحظ هذه الدراسة بالألمعىّ الحصيف من هؤلاء أو أولئك. وإن بين هذين الصنفين صنفاً ثالثاً ارتفع عن مستوى الصنف الأول، وآتاه الله بصيرة ومعرفة امتاز بهما على الصنف الثانى. وهؤلاء مع أنهم قلّة قليلة صرفتهم مشاغل الحياة عن الاضطلاع بهذا الواجب

ومن خيرة من أعرفهم فى العالم الإسلامىّ اليوم من هذا الصنف الثالث، أخى العلامة الجليل السيد محمد بهجة الأثرى، فانه مجموعة رجال فى رجل، أنشأه الله تحت جناح علامة العراق، وأحد أفذاذ المسلمين من الطبقة التى نشأنا فى ظلها، وهو السيد محمود شكرى الألوسى، عَلَم الأعلام الذين توارثوا حمل أمانات الملة بعلمهم ودينهم وأخلاقهم، فكان السيدُ الأثرى أخصّ أبناء السيد الألوسى، ثم كان له من مواهبه الممتازة ما مكّنَ له فى علوم الشريعة، وعلوم البيان، والبصيرة فى سنن الاجتماع والعمران، ومعرفة أقدار الأعلام من السلف فيما شادوا وبنوا، ومراقبة أعداء الدعوة الإسلامية فيما دسوا من ورائهم وقوّضوا. وإنى أشكر الفرصة التى سنحت له فى استعراض هذا الموضوع بلمحة خاطفة هى وان كانت فى نفسها شيئاً عظيما، غير أن إشرافها على أحداث بضعة عشر قرناً فى البناء والهدم

وأسبابهما ، تكاد تكون مقدمة لدراسة قد تخرج فى عشرات المجلدات . والسيد الأثرى من مشاغل الحياة ـ وأقربها قيامه على أوقاف المسلمين فى العراق قيام إحياء وتجديد ـ ما لا نطمع معه فى الوقت الحاضر بتكليفه هذا الجهد الأعظم ، لكننى أرجو أن يحاول التوسع فيما كتبه فى هذه الرسالة النفيسة ، فيخرج لنا بعدها دراسة أوسع ، تفتح الطريق له بعد ذلك ، أو لمن يوفقه الله للخير من شبابنا ، حتى يكون بين أيدى الجيل الآتى صورة أصيلة صحيحة لصراط الإسلام المستقيم ، ولمنيات الطريق التى تاه فيها المسلمون ، ليعودوا منها إلى سبيلهم الأول ، متوجهين باستقامة وسداد إلى الهدف الأعظم ، فتعود لهم خلافة الله على الأرض

دار الفتح
بجزيرة الروضة ، تجاه الفسطاط
بمصر

محب الدين الخطيب

الاتجاهات الحديثة

فى الاسلام

محاضرة دُعِىَ الأستاذ الأثرى إلى إلقائها

فى صيف سنة ١٣٧٠ (١٩٥١)

فى مؤتمر الدراسات العربية ، بالجامعة الأمريكية — فى بيروت



الاتجاهات الحديثة فى الإسلام

يواجه الإسلام فى هذا العصر مجموعتين هائلتين من المشكلات العويصة المعقدة : المشكلاتِ القديمة التى تراكمت عليه فى عصوره الطوال ، وعملت على تغيير صورته وتحويل وجهته عن مجاريها العالمية إلى أن تأخر أهله وعاد هو غريباً بينهم غرْبَتَهُ بين غيرهم ؛ والمشكلات الجديدة التى أحدثها له ، ولا يزال يحدثها له ، هذا السلطان السياسى لدول أوربة فى دياره ومحاولاتُهُ الكثيرة المتنوعة فى مكافحته لإفساد يقَظَتِهِ ، وعزله وإقصائه عن واقع الحياة ، مخافةَ سلطانه واستعلائه

والبحث فى وجهاته فى هذا العصر يستلزم ، قبلَ تناوله ، رسمَ صورتين موجزتين لهاتين المجموعتين من مشكلاته ، ترتيباً للنتائج على المقدمات وربطاً للمسببات بالأسباب . وبدون الاستنارة بما ينبغى أن نضمنهما من حقائق ، لا نستطيع أن نقدر خطورة التطورات المختلفة التى ظهرت فى وجهات الإسلام اليوم

وإنى لمضطر أن أعترف ، قبلَ الخوض فى هذا الخضم المتلاطم عُبابُهُ ، بأنى قد ظلمت نفسى أبشع الظلم حين اطمأننت إلى الرضا بتناول هذا المبحث العظيم فى محاضرة ، فى ساعة عابرة من الزمان ، وهو يلف فى حناياه أحداث أزمنة طوال حافلة من قضايا التاريخ وغرائب الأطوار وألوان المنازع والغايات بما لن يستطيع الإحاطة بها واستخلاص وجهاتها إلا معهد منظم يتوفر على دراستها

ولكنّ نبل الغاية التى دعيت إلى المشاركة فيها ، وتقدير الثقة التى أولانيها علماء الجامعة الأجلاء القائمون بتدبير شؤون هذا المؤتمر الكريم ، قد رجحا عندى على هضم نفسى وإيثار إقحامها هذا المأزق

وزاد فى رجحانهما على ذلك فى ميزان التفضيل والإيثار ، هذه الصورة الجميلة التى ارتسمت فى خيالى من جمال النفوس ورجاحة العقول التى سأواجهها هنا ، ثم

ما قام فى نفسى بعد ذلك : من الطمع فى كرم شمائل السامعين و إدراكهم العميق ، وما يوحيه هذا وذاك اليهم من التقدير لطبيعة البحث وزمنه ، وما تقتضيه ضرورة الموقف من عذر الحاضر أو قبول عذره

* * *

ليس للاسلام مشكلات فى نفسه عند من يتدارسونه ، ويتعمقون عقيدته وتشريعه ونظامه فى قرآنه والصحيح الثابت من سنن رسوله ، وفى ترجمتهما إلى أعمال وأخلاق ومطامحَ عُلْيا كما ترى فى سير خلفائه وأبطاله وعلمائه ومفكريه وساسته وقادته فى عهوده الأولى خاصة

وإنما مشكلاته هى من خارج نفسه فى القديم وفى الحديث

فأما مشكلاته من خارج نفسه فى القديم ، فقد نشأت له من سلسلة الآفات والكوارث والحملات العنيفة التى تعرض لها فى تاريخه المديد ، وكان الباعث عليها عوامل شتى من العصبيات والأحقاد وقفت له بالمرصاد ونزلت إلى ميدانه تصارعه وتغالبه ، لتقضى عليه ، أو لتحد من نشاطه السياسى ونفوذه العالمى ، وتقف بموجاته حيث تستطيع أن تقف بها من شرق الأرض وغربها ، فى سلسلة طويلة من الصراع بينها وبينه تركت آثاراً سيئة فى حياة المسلمين العامة أدت نتائجها الخطيرة إلى انتقال السلطان من أيديهم إلى أيدى خصومهم وتغلب هؤلاء على أوطانهم كما هو معروف

وفى الحق أن ما ترتب على هذا الصراع السافر من نتائج سياسية وعقلية وروحية واجتماعية ، بعد عصور طويلة من نشأة الإسلام ، ما كان ليكون بجملته وتفصيله على هذا النحو لو سلم الإسلام من الآفات التى تناولته ونفذت اليه بوسائلها الكثيرة كما تنفذ الأمراض الخبيثة إلى الجسم الحى لتبيده

نفذت هذه الآفات إلى الإسلام بوسيلتين منفردتين فى الظاهر متحالفتين فى

الباطن ، وهما وسيلة السياسة ووسيلة الدين ، وطالما ظهرت الحركات السياسية متبرقعة ببراقع الدين أو المذهب ، لتخفي وجهها ووجهتها وتنفذ إلى ما تشاء من مآربها تحت ستار اسمه وانتحال عقيدته

وبدأت الحركات الأولى بمحاولة قلب الدولة الإسلامية ، وهى فتية غضة لم يستو بعد عودها ، ولم تنشب جذورها ، فشرعت بالائتمار بالخلفاء الراشدين ، وظهر ذلك أول ما ظهر فى المؤامرة اليهودية المجوسية التى نفذها « بابا شجاع ! ! » أى أبو لؤلؤة الفارسى ، فقتل عمر بن الخطاب رضوان الله عليه قائماً يصلّى فى المحراب

فلما أخفقت فى تحقيق غايتها بهذه الوسيلة ، عمدت إلى إثارة الفتن الداخلية وتمزيق الوحدة الإسلامية بإنشاء الأحزاب السرية والعلنية ، والتحزب للأسر الكبيرة فى الإسلام ، ونشر فكرة الحق الإلهى فى الدولة ، وإبطال الشورى . فنشب الصراع على الخلافة ، واستتبع ذلك انتقال الحكم من يد إلى يد بعوامل العصبيات القبيلية والمذهبية . وبذلك دخل أول الوهن على الوحدة الإسلامية ، وما زال يزداد والوحدة تتجزأ حتى اقتسمت المملكة الإسلامية بين ملوك الطوائف ، وظهرت حركات الملاحدة والقرامطة والباطنية فى أحشاء البلاد ، وهم يعيثون فى الإسلام وفى الدولة ويهزءون المملكة هزاً بالغيلة والفتك بالخلفاء والملوك والعلماء ، إلى أن اكتسح المغول الشرق الإسلامى

وكان أخطر ما قامت به هذه الحركات فى توجيهاتها الخفية ، هو العمل على تحويل توجيهات الإسلام الروحية وتشريعاته ونزعاته عن مجاريها العالمية تحويلا تنتهى به إلى إضعافه وإماتة حيويته ، ليمكّن لها من إحياء عصبياتها القديمة ، وإعادة سلطانها الذاهب الذى تحنّ إليه ، وشفاء صدرها من الإسلام

فعمدت — أولَ ما عمدت — إلى الأصل الذى عليه يقوم بناء الإسلام ، وبه يتحقق وجوده ، ومنه تتفرع وجهاته فى العقيدة والشريعة والدولة والحياة . وهو

التوحيد الخالص . فارادته أن يكون شركا خاصاً من نوع شركها القديم ، ووثنية حقيرة من جنس وثنياتها الأولى

وتفرع من سعيها فى إفساد هذا الأصل الأعظم فى الإسلام ، ونجاحها فيه نجاحاً كبيراً على مر الأيام ، سعيُها فى تشويه حقائق معظم الأمور التى تترتب عليه ، وتغيير صورها بتحريف وجهاتها والابتعاد بمقاصدها ونزعاتها عن مفاهيمها الحقيقية

وكان من وسائلها الكبرى إلى ذلك ، الوضعُ ، وتمحّل التأويل لنصوص الكتاب والسنة ، وجعلُ ظواهرَ وبواطنَ للقرآن وأحكامه ، وإضافة البدع والمحادثات إلى الدين والعبادات ، وإشباع الأذهان بالخرافات والقصص والأساطير الاسرائيلية ، والترويج لضروب من الآراء الباطلة والنوازع الضارة ، ولا سيما نوازع التفرق التى لم يُبعث الإسلام إلا لاستئصال مناشئها ، وإنقاذ العالم الإنسانى من شرورها وآثامها ، بجعل الدين كله لله وحده لا شريك له فى وحدانيته ولا ندّ له ولا منازع فى سلطانه ، ولا سبيل لأحد من خلقه على خلقه سواه

وما زالت تدأب فى ذلك ونحوه حتى استطاعت أن تُحيل الإسلام ، على تراخى الأيام ، اسماً على غير مسماه ، وحملت جماهير المسلمين على أن يألفوا رويداً رويداً صورةً له يتنكّر لها الإسلام الصحيحُ أشدّ التنكر ، ومفاهيمَ له فاسدةً تخالفها ظواهر أصوله ونصوصه أشدّ المخالفة ، حتى عاد كثير مما كان معروفاً عند أوائلهم منكراً لديهم ، وكثير مما كان منكراً عند أوائك معروفاً عند هؤلاء

ولاغرابة فى أن ينتهى الأمر بالإسلام إلى هذه الغاية ، بعد أن نعلم نتائج حركات هؤلاء فى الداخل من جهة ، وآثار صراع الإسلام وراء حدود بلاده وفى قلبها من جهة أخرى ، فى إضعاف الأمة الاسلامية ، وفشوّ الآفات الاجتماعية بين المسلمين

ومن أخطر هذه النتائج :

انتقالُ السلطان ، بذهاب الأجيال الأولى من الصرحاء الخُلَّص المتشبِّعين بروح الرسالة ومطامحها العُلْيا ، إلى أيدى الموالى والهجُنَاء من رواسب الأمم الذين طواهم الإسلام فى عبابه ، وانتحلوه انتحالا ظاهرياً ، وبقيت تعتمل فى صدورهم الإحنةُ عليه والبغضاء له

ومنها : فشوّ الجهل ، والأمية ، والاستعجام

ومنها : انتهاء أزمّة التوجيه الروحى والفكرى ، بتأثير هذين العاملين ، إلى المتصوفة وأشباه الفقهاء . وقد نشأ هؤلاء فى ظلال هذا الفساد ، وورثوا تلك الصورة المشوّهة للإسلام كما صاغها أعداؤه ، ولم يكن لهم من الذكاء وحرية الرأى وسعة العلم ما يعينهم على التحقيق والتمحيص ، فاقتنعوا بصدق الصورة التى نُقلت لهم عن الإسلام ، وأَلِفُوها منذ نعومة أظفارهم ، وشبّوا عليها وشابوا ، وزادوها فساداً بجمودهم وفساد تخيلاتهم وابتعادهم عن مصادر الإسلام الأولى ورجوعهم فى كسب معارفهم الدينية إلى كتبٍ من كتب ذلك الرعيل ، وهى كتب مذهبية بحتة أملاها التعصب الخالص ، فلم تكن فى الدين بذات روح ، ولا فى الدنيا بذات طموح ، وشُغِلَ الناس بالجدل المذهبى ومقالات أهل النحل والملل ، ومذاهب الروح وفلسفة الإشراق ، ومسائل الاتّحاد والحلول ووحدة الوجود ، فحجب ذلك عنهم دينهم ، ولم ينفعهم فى دنياهم شيئاً . وأثرت الطرق الصوفية فى الأفكار تأثيراً سيئاً ، وكان من هذه الطرق ما يصطنع نظام الدرجات المتصاعدة فى المذاهب السرية ، ومنها ما يصطنع الدعوة إلى الزهد والانقطاع بزعمهم الى الله ، ويُرغّب الجماهير فى الفقر والمسكنة ، ويستكثر ، بمعاونة الطبقات الحاكمة ، من الرُّبُط والتكايا والزوايا ، فيقصدها المتبطلون من كل صوب ، ليسقطوا على الفتات من صدقات الحاكمين الأغنياء ، ثم ليجأروا بالدعاء لهم أن يطيل أعمارَهم باسِطِ الأرض ورافعُ السماء !

وقد كان سلطان طوائف المتصوفين ، في العهود الأخيرة خاصة ، أقوى سلطان على عقول الجماهير ، وكان مسلكهم الوضيع يجرى على هوى الطبقات الحاكمة في حجب الأبصار عن ترفهم وباطلهم وتعسفهم ، فوطد المظالم وللاستبداد ، ووقف في وجه الإصلاح والمصلحين ، كما حلل طاقة الأمة ، وقعد بقواها عن السعي ، وبعقولها عن الابتكار ، وبثرائها عن الاستثمار . ولسنا نود أن نتحدث عن آثارها في تشويه الأخلاق ، وإفساد المعاملات ، وتزوير الدين ، وإحالة العبادة والتقوى فيه إلى رقص ومُكاء وتصدية ورياء ومظاهر مزورة ، خشية أن لا ننتهي منها ، ونحن نريد الاقتضاب

وبهذا الذي ذكرنا وغيره مما لم نذكر ، بلغ المسلمون غاية التأخر في الدين والدنيا ، وعرضوا أنفسهم للعقوبة التي يكتبها الله على المنحرفين عن هدايته ، إذ انقطع سندهم بالروح الواعي الذي كان يثير أسلافهم إلى العظائم ، كما انقطع سندهم بالعلوم العملية التي تسخر للأمة قوى الطبيعة ، وتسخرها لمصلحتها وبقائها وخلودها ، فكان انقطاع سندهم بهذين الأمرين وانصرافهم إلى ما وصفناه من الشؤون مَدْعاةَ ضعفهم المعنوي والمادي ، وكان ضعفهم المعنوي والمادي علة سقوطهم

على أننا ، وقد انتهينا في رسم هذه الصورة للحياة الإسلامية المتأخرة إلى هذه الغاية ، نرى من الحق علينا ، بل من مستلزمات بحثنا في وجهات الإسلام الحديثة ، أن نكشف عن حقيقتين تاريخيتين لا خفاء بهما على من يتقصون التاريخ وينفضون أحداثه ، نعتقد أنهما أمسكتا العالم الإسلامي أن ينهار ، والإسلامَ أن يزول ، من أية صدمة من الصدمات التي قرعته . فإن لم يكن من الانتفاضات الداخلية ومفاسدها ، وهي من أعظم ما مُنِي به نظام من أنظمة العالم من أعدائه وجهلة أهله معاً ، فمن غادة المغول التي أبادت الحرث والنسل وأحرقت اليابس والأخضر ، وإن لم يكن لا من هذه ولا من تلك ، فمن الغارات الصليبية التي انثالت بها جيوش أوربة كلها بقضها وقضيضها عليه موجةً في إثر موجة مدة قرنين

كاملين ، وإن لم يكن لا من تينك ولا من هذه ، فمن الكارثة الأوربية التى بدأت طلائعها قبل قرنين إلى أن أطبقت عليه فى الحرب العالمية الأولى وما زالت ممسكة بخناقه

وهاتان الحقيقتان إنما ترجمان — فى واقع الأمر — إلى بقاء القرآن نفسه بنجوة من كل هذه التيارات سليما لم يمسسه سوء ، وعمله فى نفوس المسلمين بما تثيره تلاوته من شعور سليم يحملهم على تصحيح المواقف التى كانت تدفعهم إليها الدسائس والحركات الهدامة دفعاً ، على اختلاف حظوظهم من تلاوته وفهمهم لما يتلون

ونحرص على ذكرهما لما يترتب عليهما من أثر فى تبيان وجهات الإسلام الحديثة والأسلوب الذى تسير عليه

أما الحقيقة الأولى ، فتتجلى فى المظهر العقلى العام المجتمع الاسلامى فى تلك العصور على ما أصابه من فساد . وقد كان دوام هذا المظهر سليما إلى حدّ ما امتداداً لوراثة التوجيه القرآنىّ للمجتمع الأول وللسماحة التى اتصف بها وأثرت أثرها فى نفسية المسلمين وعقليتهم ، فكانت فيهم غريزة أو كالغريزة الموروثة إذا تعمدها التوجيه الفاسد بموبقاته كان فيها القدرة على الاعتصام بأصالة طبيعتها

ولعل وجه هذا المظهر يبدو واضحاً بالمقابلة بينه وبين المظهر العقلى العام لأوربة فى عهد الرينسانس ، عهد الانبعاث والحياة ، فقد تبيح لنا هذه المقابلة أن نعدّ ما بلغه المجتمع الإسلامى من الجمود العقلى فى أشد عصور تأخره طوراً من أطوار الإصلاح الذى بدأته أوربة يومئذ . فلم يشهد هذا المجتمع ما شهدته أوربة : من تحجر العقل ، وشلل الفكر ، وجدب الروح ، وقسوة الضمير فى مصادرة الحريات ، والضراوة فى إبادة الكتب ومحاربة العلم والعلماء ، وانزال أقسى العقوبات وأقصاها بالمفكرين من أجل أفكار تبدو لنا عادية ، كانوا يعلنونها فى سبيل الإصلاح والتجديد . ويذكر التاريخ أن عدد الذين عوقبوا فى أوربة بلغ ثلاثمائة ألف ،

أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفـــاً أحياء ، كان منهم العالم الطبيعى « برونو Bruno » ، وقد نقمت منه آراء ، أشدها قوله بتعدد العوالم ، فحكم عليه بالقتل ، وأحرق ميتـاً . وعوقب العالم الطبيعى الشهير « غاليليو » بالقتل ، لأنه اعتقد بدوران الأرض حول الشمس . وحُبس « دى رومنس » فى روما حتى مات ، ثم حوكمت جثته وكتبه ، فحـكم عليها بالحرق ، وألقيت فى النار ، لأنه قال إن « قوسَ قُزَحَ » ليست قوساً حربية بيد الله ينتقم بها من عباده إذا أراد ، بل هى من انعـكاس ضوء الشمس فى نقط المـاء . وأصاب « جيوفت » فى جنيف ، و « فانى » فى تولوز ما أصاب هؤلاء ، وحُرقا شيًّا على النار ، لآراء لا تستوجب حتى التعزير ، إن لم نقل تستوجب الاحترام والتقدير

ولا جدال فى أن تاريخ الاسلام لم يعرف هذا الاضطهاد الشنيعَ لحرية الفـكر والعلم الذى عرفته أوربة . والأحوال النادرة التى عوقب فيها رجال على آرائهم تعد شاذة جداً فى المجتمع الإسلامى ، وكانت إلى ذلك تتلبس بها بواعث سياسية خطيرة تعتمد قلب الدولة والقضاء عليها ، كالذى كان من قتل « الحسين بن منصور الحلاج » ، وهو رجل مجوسى الأصل من أهل بيضاء فارس ، اشتغل بالمخـارق والحيل ، وادعى العلم بالأسرار ، ثم تناهى إلى ادعاء النبوة ثم الربوبية ، واستغوى غلمان قصر « المقتدر بالله العباسى » لينفذ بهم إلى تحقيق غايته ، فأدى ذلك إلى قتله . وذكر إمام الحرمين فى كتابه « الشامل » أنه كان بين « الحلاج » وبين « الجنابى » رئيس القرامطة اتفاق سرّىّ على قلب الدولة ، وأن ذلك هو السبب الحقيقى فى قتل « الحلاج » . وهذا ، كما يُرى ، باب آخر يتعلق بحماية الأمن وحفظ النظام وسلامة الدولة ، وهو غير ما نحن فيه

. ونـكتفى بهذه الأمثلة اليسيرة من ذلك ، ونحسبها كافية فى الموازنة الفاصلة لإظهار صورة تأخر المسلمين العقلى على حقيقتها حين نضعها إلى جانب هذه الصورة

من تأخر الأوربيين على سبيل القياس والتمثيل بما يجارى الواقع ولا يجانف مذاهب الصدق .

وأما الحقيقة الأخرى ، فهى اتصال تاريخ الإصلاح والتجديد فى الإسلام ، فى مختلف عصوره . فمن ملوك من طراز الفاتحين الأوائل فى دينهم وتقواهم وفى سيرتهم وأخلاقهم ، يظهرون فى الفترات ، ويسعون فى إعادة شباب الإسلام وإقامة حكومة إسلامية على منهاج الخلافة الراشدة . . إلى علماء مصلحين رافعين لمشاعل التجديد ، ثائرين على البدع والمحدثات التى غيرت وجه الإسلام ووجهته ، ينعون على المسلمين انحرافهم عن سنن القرآن ، ويدعونهم إلى الرجوع إلى الإسلام الصحيح فى صورته الحقيقية قبل أن تعدو عليه الشعوبية ومسلمة اليهود وأضرابهم بالإفساد والتشويه .

وبذلك كانت مشاعل الإصلاح فى المجتمع الاسلامى متسلسلة يتقد بعضها من بعض . وكانت أضواؤها تختلف سطوعاً وخفوتاً على قدر طاقة مشعليها ، ومرجعُها جميعاً فى أخذ أقباسها إلى أصل الدين ، وهو القرآن وكونه حياً محفوظاً من التحريف والتبديل ، عالياً منارُه ، متألقةً أشعته . وما زال الكتاب والسنة الصحيحة يبعثان فى نفوس الأذكياء المثقفين الثورة على الوثنية والبدع والمحدثات ، والثورة على ترف المترفين واستبداد الملوك ، والثورة على الجمود والتقليد ومجانفة الفطرة وسنن الطبيعة التى لا تبديل لخلقها كما سنرى أمثلته فى التجديد الحديث

ولقد كان لاستمرار هاتين الحقيقتين فى العالم الإسلامى أعظم الأثر فى بقائه متماسكا وفى حفظ الإسلام من الزوال

تلك هى الصورة المصغرة للعالم الإسلامى حين استيقظ الغرب ، وطفق يبحث عن مجالات غنية ، ليبسط عليها سلطانه ونفوذه ، ويغذى حضارته المادية بمعادنها وخاماتها وبترولها ، ويفتح فيها لاقتصادياته وتجاراته أسواقاً تستهلك منتجاته وتنمى ثروته

وأما مشكلات الإسلام الحديثة ، فهى ناشئة من الاحتلال الأوربى ، وهى تكمن وراء طبيعة الاحتلال ووسائله فى تثبيت أقدامه فى دياره ، ومنها تنطلق أسبابها وبواعثها ، ثم تأخذ صبغاتها المختلفة ، وتتكاثر وتتعقد لتستحيل إلى أمراض متوطنة تنهك المجتمع وتحل طاقته وتبطل مقاومته

وقد دهم الغرب بلاد الإسلام ، وحمل معه إليها مظاهرَ حضارته ومذاهبه فى الدين والاجتماع ، ومنازعه فى السياسة والاقتصاد ، وأذواقه فى الفنون والآداب ونوازع الحياة ، فأخذ الناس من كل ذلك بحظوظ تختلف باختلاف حظوظهم من الاتصال بها أو القرب منها والبعد عنها ، ففتن بها أناس يسرفون فى حسن الظن والتقليد ، وعدّوها خيراً كلها . فاندفعوا يقتبسون من ظواهرها ما يستطيعون اقتباسه ، ومن منازعها ما يسهل أخذه ، لا يَعْدُونه ، أو قلّما يعدونه إلى ما وراء ذلك من استبطان الدخائل وتعمق الأصول والغايات . وأنكرها أناس ، فازورُّوا عنها ، وعدّوها شراً كلها ، فلم يأخذوا منها شيئاً ، وحاربوا منازعها ، لأنهم يزدرونها ويمقتونها مقتاً ظاهراً . ووقف آخرون موقفاً وسطاً . لا يندفعون مع أولئك فى التقليد ، ولا يشايعون هؤلاء على الازورار ، وإنما يلاحظون الظواهر ويتعمقون البواطن ويرصدون الوجهات والغايات ، ثم يعرضون ذلك كله على العقل والمثل القومية والدينية فيأخذون منه أشياء ويرفضون أشياء ، ثم يلائمون بين ما يأخذون وبين مزاج الفكر الإسلامى وأصوله ، ويضفون عليه من ذلك روحاً جديداً يجعله مِلْكاً خالصاً للحياة الإسلامية . وبهذا زاد هؤلاء فى ثروة الفكر من ناحية ، وأضعفوا من تقليد الفريق الأول ، كما خففوا من حدة الفريق الآخر من ناحية ثانية ، بل صنعوا أكبر من ذلك فأبطلوا مع الأيام كثيراً أو قليلا من آثار نوازع الاحتلال فى استخدام وسائله المادية والمعنوية فى تغليب هذه الحضارة ومرافقها على الحضارة العربية الإسلامية للاستعلاء بها على الإسلام وحضارته

ولكن الاحتلال لا يقف ولا يكف عن المضى فى سبيله إلى غايته ،

والحضارة عنده ليست غير وسيلة من وسائل تثبيت أقدامه فى الديار المحتلة إلى آخر الزمان !

وقد كان هدفه ـ ولا يزال ـ إذابة شخصية المحتلين فى هذه الحضارة ، وتغيير ما بأنفسهم من روح الاعتزاز بعقيدتهم والتعلق بلغتهم وبتاريخهم والإكبار لحضارتهم تغييراً يسلمهم إلى الخضوع لإرادته ، والاستسلام لسلطانه ، والفناء فى مذاهبه ، فهو يعلم من سلطان كل أولئك على نفوسهم الشىء الكثير ، ويعلم أنه لن يستطيع أن يؤدى عمله ، وينتهى إلى غايته ، وينجح نجاحاً تاماً ، إلا إذا مهد له السبيل بتوجيهات خاصة ومنازع جديدة تقطع صلة المسلمين بدينهم وتضعف نوازعهم إلى الاستقلال عنه والتمرد عليه

فسعى إلى ذلك ـ أولَ ما سعى ـ بالتبشير ، وكان يظنه سلاحاً نافذاً ، فلم يثمر له أية ثمرة إيجابية ، وذهبت مساعيه فى نشره أدراج الرياح ، ووجد أن المسلمين غير محتاجين إلى من يهديهم إلى « عيسى » عليه السلام ، فهم يؤمنون « بعيسى » و « مريم » وبجميع التعاليم المعقولة فى المسيحية ، ويبرئونه وأمه من كل شىء كما يبرئه المسيحيون

وحينئذ فكر فى نشر التعطيل بين المسلمين ليكون الوسيلة إلى قطع صلتهم بالإسلام ، فأسس لذلك مدارس خاصة ، كالمدرسة العظمى التى أسست فى الهند ، لنشر تعاليمه ، وبث مبادئها فى نفوس النشء المسلم . فضلّ كثير منهم ، وأشربوا روح الإلحاد فى قلوبهم ، ولا سيما أولاد الأمراء الذين كان معظم طلاب تلك المدرسة منهم . وهال ذلك السيد « جمال الدين الأفغانى » فألف رسالته المشهورة « الرد على الدهريين » ، وانتشرت الرسالة فى طول البلاد وعرضها ، فأخرج كثير من أمرائها أولادهم من تلك المدرسة ، ورجع آخرون عما كان خامر نفوسهم من التعطيل والإلحاد

وعلل السيد « الأفغانى » مقصد المحتلين من ذلك بأنهم رأوه أقرب وسيلة إلى أغراضهم ، وتأييد سلطانهم فى الهند ، وقال : « إنهم وجدوا أن الديانة الإسلامية تطلب من أتباعها أن يكونوا أصحاب الشوكة والسلطان فى أوطانهم ، ولاحظوا أن ذلك هو طبيعة الإسلام التى لا يمكن انسلاخه عنها ، ولا انتزاعها من فطرة أبنائه ، ففكروا فى أمر يضعف أثر هذه العقيدة فى نفوسهم ، فرأوا أن أقرب وسيلة إلى نيل مرادهم هو نشر التعطيل بين المسلمين »

ويشير مستر « جب » إلى شبكة المدارس الأجنبية التى انتشرت ، من منتصف القرن التاسع عشر ، فى معظم البلاد الإسلامية ، وتولت الدول الأوربية تأسيسها فيها ؛ و إلى أثرها فى صياغة أخلاق التلاميذ وتكوين ذوقهم وإعدادهم للتأثر بالمؤثرات الأوربية ، فيقول فى بعض كلامه :

« فى أثناء الجزء الأخير من القرن التاسع عشر ، نُفذت هذه الخطة إلى أبعد من ذلك بإنماء التعليم العلمانى بإشراف الإنجليز فى مصر والهند . ولعل هناك نصيباً من الحق فى التهمة التى تُرْمَى بها هذه المدارس الأجنبية من أنها مفسدة لقومية التلاميذ ، وإن كنا لا نستطيع القول بأن التطورات السياسية التى وليت ذلك فى البلاد الإسلامية أيدت هذه التهمة . ولكن الذى فعلته بلا ريب أنها ربَّت فى التلاميذ خروجاً على الأنظمة الاجتماعية وعلى السياسة إلى حد ما فى أوطانهم الأصلية . وبإضعافها من هذه الوجوه لسلطان النزعة الاسلامية القديمة على التلاميذ ، أدخلت فى بناء المجتمع الإسلامى أداةً هادِمة ، وقطعت بعض الأواصر التى كانت تحفظ تماسكه »

وفى هذه الإشارات الموجزة إلى نتائج وجهة الاحتلال وأثر مساعيه فى تغيير العقائد والأنظمة الاجتماعية ، تظهر الأصول التى تنشأ منها كليات مشكلات الإسلام فى هذا العصر ، وتنحو هى وجزئياتها الكثيرة فى النواحى النظرية

والعملية نحو نقض صرح الثقافة الإسلامية التالد من أساسه وتحطيمه تحطيما شاملا

ومن أجل هذا نشأ الاستشراق فى بلاد الغرب ، وأخذ جماعة من الغربيين فى كل دولة ذات مطامع استعمارية يعكفون على لغات الشرق وتاريخه ودينه دراسة وتأليفاً ونشراً ، وتلك هى الغاية التى يعملون لها ، ويثيرون من أجلها المشكلات بوجه الإسلام

* * *

فهاتان هما الصورتان الموجزتان ، لم أبلغ منهما كل ما نريد ، ولكنهما على كل حال تلقيان شيئاً من الضوء على الوجهات الحديثة للإسلام فى هذا العصر

وأبدأ بالموضوع نفسه ، فأقول :

لما باغتت أوربة العالم الإسلامى ، وبدأت تغزوه من عن يمينه وشماله ، وتتغلغل جيوشها فى قلبه ، منذ القرن الثامن عشر ـ كان على الإسلام أن يَلُمَّ شَعَثَهُ ، ويحارب فى ميدانين ، فى الميدان الداخلى للتحرر من أغلال العصور الوسطى ، وفى الميدان الخارجى لردّ عادية المعتدين الغزاة

فصاغت الأقدار فى وقت متقارب جداً وجهته إلى ذلك فى مظهرين هما الإسلام كله ، ولا يكون الإسلام إسلاماً إلا بهما مجتمعين ، مظهر مادى حربى ، ومظهر دينى روحى

أما المظهر المادى الحربى : فقد كشفت عنه الإمبراطورية العثمانية والدولة العلوية بمصر ، حين سعى بعض السلاطين العثمانيين وساسة الترك إلى اقتباس وسائل القوة والتنظيم الحربى والإدارى من المظاهر المدنية لحياة أوربة ، وسعى إليه كذلك « محمد على » فى « مصر » من الناحية الحربية والاقتصادية والعلمية والعُمْرانية على حظوظ مختلفة من التوفيق . وقد أرادوا جميعاً ، بعد أن لمسوا تفوق الغرب بوسائله الحديثة ، أن يتهيأوا للدفاع عن الوطن الإسلامى بمثل الوسائل التى يصطنعها . ولكن هذه

اليَقَظَة جاءت ، لسوء الحظ ، متأخرة جداً ، إذ كانت أوربة قد استكملت وسائل نهضتها خلال ستة قرون متقدمة توفرت فيها على الإصلاح والتجديد والانبعاث ، وأخذت تعدو إلى غايتها عَدْواً ، بل تطير إليها طيراناً ، وتتمخض صناعاتها الحربية كل يوم عن سلاح جديد تبادىء به أعداءها قبل أن يتمكنوا من الاستعداد للقائها

وليس المهم فى بحثنا أن نشير إلى غَناء ذلك أو عدم غَنائه يومئذ ، وإنما المهم ما أريد أن أشير اليه من دلالته العملية على وجهة الإسلام ومرونته ووفائه بحاجات كل عصر

فإن إسراع هاتين الدولتين إلى إدخال وسائل الغرب ، بل قبول التنظيم الأوربى فى الإدارة والعمران والفن ، هو مظهر واضح لهذه الوجهة فيه والاستعداد لديه . وهى وإن تكن من البديهيات ، إلا أن الجمود الذى مُنى به بعض المسلمين والعصبية التى ابتلى بها غيرهم فرموا الإسلام بالعقم والجمود والعداء لكل جديد ، يجعلان من هذه الظاهرة البديهية حالة تستوجب التنبيه والدلالة عليها

فما من شك أن نظاماً من الأنظمة كائناً ما كان نوعه وشكله ، لا يُكتب له التوفيق ما لم يكن له سِناد من القوة . وإذا كان النظام شطراً ، فالقوة التى تسنده هى شطره الثانى ، وبدونهما لا يُعد للنظام وجود . ومثلها مثل الجسم والروح إذا اجتمعا كانت الحياة ، وإلاّ فالموت

ومن هنا حث القرآن المسلمين على إعداد القوة ما استطاعوا إلى إعدادها سبيلا ، وأن لا يقفوا تفكيرَهُمْ على قوةٍ بعينها ، إذِ الأسلحة والقوَى تتنوّع بتنوّع الأزمنة وتطور العقل والعلم والصناعات . يدل على ذلك هذه الآية الكريمة ﴿ وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قُوّةٍ ﴾ ، وهذا التنكير الذى فى كلمة ﴿ قوة ﴾ ، والتنكير فى نحو اللغة العربية يفيد استغراق الجنس كما يقول العلماء ، ويفسر لنا

فى هذه الآية إرادة التطور فى مفهوم القوة باختلاف العصور ، كما توجب الآية تقصّىَ الاستطاعة إلى أبعد مداها لإعداد الوسائل الصناعية والفنية لإنتاج القوة

وذلك ما أدركته العقلية الإسلامية حين رأت شيئاً جديداً وواجهت أمراً واقعاً لا سبيل إلى دفعه إلا بوسائله ، فانصرفت إلى إعداد جيوش لها كلُّ ما للجيوش الحديثة من صفات الطاعة والنظام وآلات القتال ، وإلى إعداد أساطيلَ فى البحر كالتى يملكها الغرب . ولكن الدول الأوربية كانت أكثر عُدَّةً واستمداداً وحيلةً ، فالأسطول الفخم الذى بناه « محمد على » أحرقته هذه الدولُ غِيلةً فى واقعة « نافارين » ، ثم تألبت عليه ، وحالت بينه وبين اقتحام « الأستانة » لا حباً للدولة العثمانية التى تَعُدُّها أعظم أعدائها ، ولكن تقليما لأظفار الدولة الفتية التى خلفت « نابوليون » على « مصر » ، وقوى سلطانها وامتد جنوباً وشمالا ، حتى عاد أمرها مرهوباً يخشى من ظهوره وتغلبه أن يكون عاملا جديداً فى صدّ أوربة عن وجهتها ، وقد يستطيع أن يجمع كلمة المسلمين ويقضىَ على طغيانها . ثم كان من دسائس أوربة بعد وفاة « محمد على » ما أضعف خلفاءه ، ومهّد لاحتلال مصر . وبذلك أزالت هذا العامل الخطير والمنافس الجديد ، ورجعت إلى منافسها القديم الذى تظاهرت بحمايته من « محمدعلى » ، فلم تترك سبيلا تنفذ منه للقضاء عليه إلا سلكته ، حتى أخمدت أنفاسه فى الحرب العالمية الأولى

ومن هنا زالت من وجه أوربة القوة التى أقضّت مضاجعها عصوراً طويلة ، وأثارت جنونها منذ احتل « محمد الفاتح » القسطنطينية وتغلغلت الجيوش العثمانية فى البلقان ، إلى أن نطحت جيوش « سليمان القانونى » أسوار « فينة » ، فتداعت الدول الأوربية إلى حلف سارت بتنفيذ خططه رويداً رويداً حتى أدركت غايتها على نحو ما

ونقول : « أدركت غايتها على نحو ما » ؛ لأننا نعتقد أن القوة لا تتمثل

بآلات القتال وحدها ، وأن شهر السلاح دائماً غير ممكن لكل أحد ، وأن وراء هذا النوع من القوة قوى أخرى بها توجد إذا فقدت ، وهى بيد الإسلام فى هذا الشرق ، والوجهات الجديدة ترى المتأمل كيف هو يدركها ، وكيف يسعى فى توفيرها لنفسه سعياً جامحاً ليس من السهل كبحه بعد اليوم

وأدع الاطالة فى هذا الشأن ، لأنتقل إلى المظهر الثانى من المظهرين اللذين هيأتهما الأقدار فى مطلع العهد الجديد ليقظة الإسلام ، وهو المظهر الدينى الروحى

وأعنى به تلك الحركة الدينية العنيفة التى نشأت فى جزيرة العرب ، فى أثناء القرن الثامن عشر ، فلفتت إليها العالم الحديث فى الشرق والغرب ، واضطرته أن يعنى بأمرها

وهى حركة « الوهابيين » التى أحدثها الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » ، وقد عاصرت فتح « نابوليون » لمصر ، وكانت خليقة بأن تدعى « حركة المحمديين » نسبة إلى باعثها وطبيعة دعوته إلى التوحيد الخالص الذى بعث به رسول الله محمد ابن عبد الله ﷺ ، ولكنها نسبت إلى أبيه ، وأبوه لا يد له فيها ، لأمر ما أرادته السياسة العثمانية وأشياعها حين أشفقت من انتشار سلطانها أشد الإشفاق ، فقاومتها ما وسعتها المقاومة ، وبالغت فى تشويه غايتها ، وعزتها إلى الابتداع والخروج على الدين ، وجعلت هذا النبز عنواناً على ما تزعمه من ضلالها

وندع التاريخ السياسى لهذه الحركة ، لنفرغ لوجهتها فى الإسلام كما تهدى اليها كتب زعيمها ودراسات الباحثين المحايدين من الشرقيين والغربيين . والمجمع عليه أن هذه الحركة فى الإسلام جديدة وقديمة معاً ، والواقع أنها جديدة بالنسبة إلى المعاصرين ، ولكنها قديمة فى حقيقة الأمر ، كذلك يقول « طـــه حسين » فى « الحياة الأدبية فى جزيرة العرب » . وهو يوضح ذلك بأنها « ليست إلا الدعوة القوية إلى الإسلام الخالص النقى المطهر من كل شوائب الشرك والوثنية ، هى

الدعوة إلى الإسلام كما جاء به النبي خالصاً لله وحده مُلغياً لكل واسطة بين الله والناس ، وهي إحياء للإسلام العربي وتطهير له مما أصابه من نتائج الجهل ومن الاختلاط بغير العرب . فقد أنكر « محمد بن عبد الوهاب » على أهل « نجد » ما كانوا قد عادوا إليه من جاهلية في العقيدة والسيرة . كانوا يعظمون القبور ، ويتخذون بعض الموتى شفعاء عند الله ، ويعظمون الأشجار والأحجار ، ويرون أن لها من القوة ما ينفع وما يضر . وكانوا قد عادوا في حياتهم إلى حيـــــاة العرب الجاهليين ، فعاشوا من الغزو والحرب ، ونسوا الزكاة والصلاة ، وأصبح الدين أسماً لا مسمى له . فأراد « محمد بن عبد الوهاب » أن يجعل من هؤلاء الأعراب الجفاة المشركين قوماً مسلمين حقاً على نحو ما فعل النبي بأهل الحجاز منذ أكثر من أحد عشر قرناً »

ثم يقول : « ولولا أن الترك والمصريين اجتمعوا على حرب هذا المذهب ، وحاربوه في داره بقوى وأسلحة لا عهد لأهل البادية بهـا ، لكان من المرجوّ جداً أن يوحد هذا المذهب كلمة العرب في القرن الثاني عشر والثالث عشر للهجرة ، كما وحد ظهور الإسلام كلمتهم في القرن الأوّل »

ويمضي على هذا السّنن في بيان أثره في الحياة العقلية والأدبية عند العرب من نواحي مختلفة ، وفي إيقاظ النفس العربية ، وما وضع أمامهـا من مَثَل أعلى أحبته وجاهدت في سبيله بالسيف والقلم واللسان ، وما أفاد العالمُ العربيُّ كله من هذه الحركة العقلية الجديدة ، وهو كلام يحسن الرجوع إليه في هذه الرسالة

ويقول « لوثروب ستودارد » الأمريكي : « إن هذه الثورة التي أشعلها « محمد بن عبد الوهاب » فاشتعلت واتقدت ، اندلعت ألسنتها إلى كل زاوية من زوايا العالم الإسلامي . . . فتبدت تباشير صبح الإصلاح ، ثم بدأت اليقظـــــة الكبرى في عالم الإسلام »

والمتقصى لأطوار الاصلاح فى العالم الإسلامى، وعلاقة بعضها ببعض، يرى فى هذه الثورة امتداداً لانتفاضات قديمة عرفتها العصور الإسلامية فى آثار «ابن حزم» فى الأندلس، ثم فى ثورات أتباع الإمام «أحمد بن حنبل» ببغداد فقد كانوا يرون ما يتعرض له الإسلام من لوثات أهل البدع والأهواء وما يتهدد المجتمع من سرف المسرفين فى الشهوات والموبقات، ثم فى انتفاضة شيخ الإسلام تقى الدين «أحمد بن تيمية» فى بلاد الشام فى القرن الثامن الهجرى، وهى أروعها تجديداً وأبعدها أثراً فى إصلاح الفكر الإسلامى. ومن كتب ابن تيمية وأتباعه كابن القيّم وابن قُدامة وابن كثير وغيرهم، اقتبس «محمد بن عبد الوهاب» جذوته الإصلاحية، فدرس القرآن والسنة دراسة متجردة من أوهام المخرفين وأهل الأهواء، بعثته إلى هذا التجديد الذى وُفق فيه توفيقاً لم يُكتب لأولئك، لأنهم خذلتهم السياسات، ووجد هو من السياسة حماية له ومن قوتها نصراً لدعوته، فكان له هذا الأثر البعيد الذى يصفه «لوثروب ستودارد» فى عالم الإسلام الحديث، وهو أثر يطول شرحه جداً إذا تقصيناه فى مصر والشام والعراق والحجاز واليمن وبلاد شمال إفريقية والهند وتركية وغيرها، والمهم فيه نتيجته من حيث إنه وضع صورة الإسلام الأولى فى نصابها التام من الحقيقة، ثم تأثير ذلك فى نفسية المسلمين وتوجيهها إلى المثل الأعلى، ثم تأتى من بعد هذا وذاك دلالته على الحيوية الكامنة فى الإسلام وعلى ما يجيش فى نفسه من إرادة الحياة الراقية للمسلمين، وإن كان لا يزال يجد من جهلاء المسلمين وبعض حكامهم وساستهم وعلمائهم أيضاً ازوراراً عنه حيناً، وحرباً عليه وذوداً للاصلاح حيناً آخر، لغايات فى أنفسهم لم يصهرها الزمن ولم يطهرها من لوثاتها الموروثة بعدُ.

ولما تجسم الدولة العثمانية ولمفكرى الإسلام بعد هذا العهد شَبَحُ «المسألة الشرقية» التى نجمت منذ سنة ١٨٢٥ م، بتفاقم التدخل الأجنبى الأوربى السياسى والاقتصادى فى البلاد الإسلامية، وأدركوا جميعاً أن حلول الكارثة العظمى غير

بعيد عنهم ، وأنَّ عليهم أنْ يستنفروا الرأى الإسلامى العام ، ظهرت حركة « الجامعة الإسلامية » . وكان المسلمون فى كل مكان يتلهفون إلى العثور على وسيلة تعينهم على أن يستعيدوا سلطانهم على مصاير أمورهم ، فآستجابوا لها بحماسة فائقة ، وآلتمس الزعماء الوسيلة فى الشعور بالوحدة الدينية ، وهى أكبر قوة مشتركة بين المسلمين تنظم شتاتهم وتجعل منهم قوة مرهوبة يحسب حسابها فى الصراع الدولى إذا أحسنوا معها العمل على آتخاذ الوسائل الحديثة الجدية ، وكثر أنصار فكرة « الجامعة الإسلامية » من المفكرين ، وسعوا لها طوال القرن التاسع عشر ، وبلغت ذروتها فى عهد السلطان « عبد الحميد الثانى » ، وكان أكبرَ دعاتها فى العالم الإسلامى « جمال الدين الأفغانى » و « عبد الرحمن الكواكبى » و « محمد عبده » ، وأعظمَ مؤيديها مسلمو الهند الذين شعروا بعد زوال دولتهم على يد « شركة الهند الشرقية البريطانية » بحاجتهم الشديدة إلى التأييد الخارجى أمام خطر الهندوكية والآستعمار البريطانى

وما مِن شك فى أن حركة « الجامعة الإسلامية » هذه قد نجحت مقدماتها نجاحاً تاماً من حيث آستطاعت أن توقظ الشعور بالوحدة الإسلامية وتقوّيه تقوية لم يسبق لها مثيل منذ عصور ، وقدّم المسلمون فى أنحاء الأرض كل الدلائل الحسية على تأييدها وشد أزرها . وكان مقدراً أن تنجح بنتائجها ، لولا عوامل كثيرة كانت تكمن وراء طبيعتها والآستجابة لها ، وأهمها ما كان يعوزها من الملاءمة بين سياستها ووسائلها وبين القوى الجديدة التى كانت تجتاح العالم الإسلامى ، ولم تكن الدولة العثمانية يومئذ قادرة على تحقيق هذه الملاءمة بوجه من الوجوه ، فسياستها فى الحقيقة كانت قائمة على خداع دول أوربة وتخويفها بشبح إعلان الجهاد فى العالم الإسلامى ولم تُعِدَّ له وسائله المنجحة ، وآقتصادياتها كانت أقربَ إلى الإفلاس منها إلى الكفاف ، وصناعاتها الحربية وغير الحربية غير موفورة ، وإدارتها قائمة على الآستبداد والرجعية ، كالذى ظهر فى معظم حركات السلطان « عبد الحميد

الثانى » وتوجيهاته ، وأدى إلى إسقاطه ، بعد ثلاثين عاماً من حكمه ، آستطاعت « اليابان » بمثلها أن تكون أمة ذات حضارة عظيمة ، وقوة هائلة تجاهد بها الدول الكبرى ، فتضرب روسية ، وتنافس أوربة وأمريكة ، ولم يحسن « عبد الحميد » فيها من العمل غير سياسةِ التخويف وخَنق « مِدحت » ونفي الأحرار وتقريبِ « الصيادىّ » وتخدير الشعور العام بمخدرات التصوف وبرود تراب القبور بدلا من إيقاظه بمنبهات الإصلاح ، وخنقِهِ بدخان التكايا والزوايا بدلا من إحيائه بمنعشات القوة وبأصداء المعامل والمصانع تتجاوب بها آفاق البلاد .

وكان شأن الممالك الإسلامية المستقلة الأخرى كإيران والأفغان كشأنِ الدولة العثمانية فى الحكم الآستبدادى المطلق إن لم يكن أفظع وأقبح منه .

ولقد هال زعماء الفكر فى الإسلام ما لمسوه من مفاسد هذا الآستبداد فى المجتمع ، وما أدركوه من آنعدام الآتساق بين منازعه وبين روح الإسلام وما يدعون إليه : من الإصلاح ، وبعث حركة « الجامعة الاسلامية » ، وقدروا أن مساعيهم ذاهبة أدراج الرياح حتما مع تغلّبِ الآستبداد وفساد الأوضاع الإدارية والآجتماعية والسياسية ، فآتجهوا إلى مقاومته ، وفضحَ السيد « جمال الدين الأفغانى » ، وهو داعية الحركة الأكبر ، تصرفات الطبقات الحاكمة ، ودعا إلى إقامة الحكم الشوروى ، وتعالت أصوات المصلحين بآستنكار الآستبداد ، ذاهبين إلى أنه أصل لكل فساد ، ناعين على الحكام آنحرافهم عن سبيل الإسلام فى حكم المسلمين وإدارتهم ، منبهين على عواقب ذلك ، ولم يمنعهم ما علموه من تأصله فى طبائعهم وتعذر إقلاعهم عنه من تنبيه المسلمين على مضاره ، وإثارتهم إلى تقويض صروحه ، حتى قال فى ذلك « الكواكبى » كلمته الرائعة المعبرة عن قوة يقينه وبُعدِ مَطارح أمله فى صدر كتابه « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » :

« كلمات حق وصيحة فى واد ، إن ذهبت اليوم مع الرياح فقد تذهب غـــداً بالأوتاد »

ولقد ذهبت هذه الصيحات فعلا بالأوتاد، وطوحت بعبد الحميد وصولاته، وعملت أفكاره وأفكار بقية المصلحين عملها في توجيه العالم الإسلامي إلى تغيير أنظمة الحكم وإصلاح نفسيات الحاكمين، كما أفادت دعوتهم إلى « الجامعة الإسلامية » بتأثيرها النفسي في المسلمين، بما أيقظته فيهم من الشعور القوي بالوحدة الذي ما زال ماثلا في كل ما تلاها من الحركات في البلاد الإسلامية، وإن أخفقت في بلوغ نتيجتها السياسية لما قدمنا من الأسباب

وهكذا كانت مهمة زعماء الإصلاح الإسلامي، منذ بداية عهد اليَقَظَة، تستهدف وجهتين: الهدم والبناء في وقت معاً، ثم تقيم البناء على أساس مهم جداً لا يتم أمر عظيم كالذي يبغونه بدونه، وهو: تغيير نفسية الشعوب الإسلامية، وتحريرها من ركام المنازع الفاسدة والأهواء الدخيلة في الإسلام. وهو أساس أرشد اليه القرآن في قوله تعالى ﴿ إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم ﴾، وبه نقل الرسول العرب من حال إلى حال، وعليه أقام عمود الإسلام

وكان هؤلاء الزعماء يعلمون أن محاولة الإصلاح بالبدء بتغيير معالم الحياة الظاهرية وحده إنما هو أخذ بذنب الإصلاح لا برأسه، وأن ما يملأ جوانب النفسية الإسلامية من رواسب العقائد الباطلة يقف حاجزاً عالياً وسداً منيعاً دون بلوغ كل أمل في تغيير الأوضاع القائمة ما لم يغيّر ويُملأ بالأفكار القوية السليمة النابضة بالحياة كما يوحيها الإسلام الصحيح

لهذا مضى كبار المفكرين في انتهاج خُطّة الإصلاح الديني على نحو ما صنع « لوثر » في الغرب، وانتقل به الشيخ « محمد عبده » وتلاميذه وخلفاؤه في أواخر القرن التاسع عشر إلى ميدان كان أرحب أفقاً وأكثر ملاءمةً للمواقف الجديدة التي دُفع اليها المجتمع الإسلامي دفعاً، وأمكنَ قدرة على حلّ المشكلات الحديثة التي أثارها الغرب بتوجيهاته إلى الإلحاد والتشكيك في الإسلام، أو نشأت من

مغالبة الثقافة الحديثة فى أمهات مسائل المعرفة ، خاصةً فى تركية ومصر والهند

فبنوا مناهجهم الجديد على أصول راقية كان لها أكبر الأثر فى توجيه النهضة الحديثة ، وتحرير الإسلام من أغلال الجمود ، وبعث المسلمين فى سبيلهم الطبيعى إلى التحرر من كل سلطانٍ عليهم غير سلطان الله

وكان فى هذا المنهاج هدم ، وكان فيه بناء

كان فيه هدم لأصول العوامل القديمة التى عدت على الإسلام بإفساد جوهره وتغيير صورته ، ونقضٌ للشبهات التى يحوكها دعاة التعطيل الذين ربتهم مدارس الاحتلال ورددها الشعوبيون ونفر من المستشرقين فى الدين ورسوله ، والإسلامِ وأهله ، والعربِ ومدنيتهم ، والقرآنِ وإعجازه ، والفصحى والعاميةِ ، والحروف العربية والحروف اللاتينية ، إلى آخر هذه السلسلة وفروعها المعروفة

وكان فيه بناء وإحياء للعاطفة الدينية المهذبة يرمى إلى تقوية الروح الإسلامى ، وإعداده للصمود فى وجه الحملات المغرضة المنظمة على الإسلام ودحرِها

وقد تناولت هاتان الوجهتان من الهدم والبناء أمهات قضايا العقيدة والشريعة ، والمجتمعَ والنظامَ والتربيةَ والأخلاقَ ، وأصولَ التفكير ، وقواعدَ العمل فى الإسلام . وحفلت دراساتها بالتحليل والتعليل فى تبيان وجهات الإسلام ، وكشفت عما هو منه وعما هو غريب عنه ومحمول عليه من العقائد والآراء ، كما حفلت بالبحث فى ماضى الإسلام وحاضره ، وفى هدايته وارتقائه المعنوى وبعثه على الارتقاء المادى ، وفى موقفه من حرية الفكر والعقل والعلم والمدنية ، وفى مسالكه فى السياسة والاقتصاد والحرب والسلم ، وفى معالجته لقضايا الإنسانية الكبرى ، وفى الصلة بينه وبين الأديان وإدراكه للعلاقات الدولية وشمول نظرته المؤاخذة الإنسانية وقدرته على النهوض بها والجمع بين الأجناس المختلفة والتسوية بينها فى المكانة والعمل وتهيئة الفرص . وتناولت ذلك كله بأساليب علميةٍ قوية واضحةٍ

القسمات ، ونسقٍ من التفكير المرتب يجمع أحسن ما فى القديم والحديث

هذه الحركة الخطيرة ظهرت فى مصر ، فما لبثت أن جاوزت حدودها إلى الهلال الخصيب بل إلى العالم الإسلامى كله ، وكانت مجلة « المنار » سفيرها إليه ، حملت أفكارها أربعين عاماً إلى بلاد العرب كما حملتها إلى بلاد الترك والهند والصين وأرخبيل الملايو ، فأثارت اهتمام المسلمين فيها بالإصلاح الدينى وكونه أصلا يقوم عليه كل إصلاح

وترددت أصداؤها فى آفاق الأناضول ، كما ترددت فى أندونيسيا والهند ، ففى أندونيسيا يذكر ك . ك . برج من تأثيرها فى الشبان الأندونيسيين الذين يدرسون فى « الأزهر » أو فى « مكة » أن هؤلاء جميعاً رأوا فيها الإسلام على نور جديد ، لم يروا فيه مثالا للتشدد والجمود ، ورأوه لا يزال الدينَ المختار بين الأديان وحاملَ المثل العليا لكل زمان مضى والمثل الجديدة لكل زمان آت ، وهو متجدد الشباب ، حامل لواء كل تقدم ، شديد فى تسامح ورفق . قال : « واصبح الذين اقتبسوا من نور المنار فى مصر « منارات » صغرى فى أندونيسيا بعد أن عادوا إليها »

وفى الهند تمخضت حركة فيها من هذه الحركة تشابه فى المناشىء والمنازع والوجهات ، متأثرة بها ومستقلة بظروفها الخاصة أيضاً ، وكان ما أشرنا إليه فى الكلام على « الجامعة الإسلامية » من شعور المسلمين فيها بالحاجة إلى التأييد الخارجى أمام خطر الهندوكية والاستعمار البريطانى قد أثارهم فى الوقت نفسه لإصلاح الداخل ، فظهرت فيها حركات دينية واسعة النطاق تتابعت بين حين وآخر فى أثناء القرن التاسع عشر ، وكانت كلها من طراز الحركة الدينية فى جزيرة العرب التى شعارها « الرجوع إلى القرآن » . وكان تتابع هذه الحركات تمهيداً لتلاقى النهضة الهندية بالنهضة المصرية والتأثر بها من غير شك . وقد انبعثت النهضة

الهندية الجديدة بعد سنة ١٨٥٧ م ، بدأها السير « سيد أحمد خان » بإنشاء « جامعة عليكره » و « ندوة العلماء » ، وتبع ذلك قيام جامعات وجمعيات قوية سارت بالإسلام إلى هذه الوجهة ، فتلاقى شرقه بغربه ، وتعاونت أفكار « شبلي النعماني » و« سيد أمير علي » و « محسن الملك » و « صديق خان » و« محمد علي » و السير « محمد إقبال » في جناح الإسلام الشرقي مع أفكار « جمال الدين » و « محمد عبده » و « سعد زغلول » و « رشيد رضا » و « المراغي » و « مصطفى عبد الرازق » و « الكواكبي » و « الجزائري » و « القاسمي » و « الألوسي » و « رفيق العظم » و « شكيب أرسلان » و « ابن باديس » في جناح الإسلام الغربي ، فكان من آثار هذا التعاون هذه البواكير التي تشاهد في العالم الإسلامي

وقد لفت إشراق هذه الحركة الواسعة أنظار الشبان المسلمين المأخوذين بتوجيه أوربة في البلاد الإسلامية كافة ـ إلى الإسلام ، وكان فيهم ازورار عنه ، فاجتذبتهم إليه ، فألفوه في صورة أخاذة غير الصورة الكابية التي رسمت لهم ، ورأوا من حقائقه ما لم يخالوه فيه من قبل ، وبصروا بدساتير وآداب ومثل تعلو فوق متناول المطاعن والشكوك ، ولم يروا فيه جموداً كما لقنوا ، وإنما رأوا شباباً متجدداً وحياة نامية ورفقاً وتسامحاً وإخاء ومساواة وعدلا ، فانجذبوا إليه ، وأشربوا حبه ، وهاموا فيه ، وأولوه ما يستحق من اهتمام ورعاية ، وتعلقوا بأهدافه . ورأوا في قادته من قوة الشخصية وسعة العلم وأصالة الرأي وما صحب ذلك من الحماسة المشبوبة في مناهضة الاحتلال الأجنبي مع صفاء الضمير وخلوص النية ، ما زادهم إعجاباً وإيمانا بالحق الذي يدعون اليه ، ووثقوا أن هذا الذي رسموه من مناهج الإصلاح الديني هو السبيل الموصل إلى المطامح القومية والأماني الوطنية التي تجيش في صدور المسلمين والعرب ، وتظهر في مناهضتهم للاستعمار ، فاندفعوا فيه ، وأشرعوا أقلامهم في تبيان محاسن الإسلام ، عادين الأماني الوطنية جزءاً منه لا تنفك عنه

وبهذا اتداحت دائرة التجديد الإسلامي وامتدت إلى نواحي شتى وآراب مختلفة . وقد كان « جان جاك روسو » و « الثورة الفرنسية » و « الفكر الأوربي » الأمثلة التي يحتذيها هؤلاء ، فأصبحت عبقرية « محمد » ومثل الثورة الإسلامية وسمو الفكر العربي هي المثل التي يلتمسون فيها الإصلاح والبعث . وكانت القيادة التوجيهية إلى علماء « الأزهر » و « الزيتونة » و « القرويين » و « مسجد دهلي » ، فأصبح خريجو الجامعات الشرقية والغربية شركاءهم فيها . وكان نشاط العلماء الدينيين مقصوراً على أروقة المدارس والمساجد لا يتعدى منطقتها المقفلة ، فبسط هؤلاء جناحهم على باحات المجتمع كله ، ومدوه إلى الجمعيات والمجامع والأندية والمؤتمرات والصحافة والتأليف والترجمة والنشر ، وكتبوا حقائق الإسلام في ضوء العلم الحديث بفهم مستقل ووعي عميق ، وواءموا بين الدين والحياة ، وعرضوا نظريات العدالة الاجتماعيـــة والضمان الجماعي والتأميم والمذاهب الاشتراكية والشيوعية والرسمالية على حقائق الإسلام ، وقابلوا بينها ، فأثبتوا قدرة الإسلام على مواجهة المعضلات بنفسه ، ولم ينسوا مع ذلك أن يتأملوا ويطيلوا التأمل في حضارة الغرب على أنها وسيلة لا غاية ينتفع من مادياتها بما يمكن للأسلام من الظهور والاستعلاء

كذلك أخذت هذه الحركات بعضها برقاب بعض ، وسلكت سبيل الإصلاح المترقي على حسب ما تقتضيه طبيعة النشوء ، وهي ماضية إلى غاياتها في قوة وروية لتبلغ نتائجها المؤملة

وقد تجمعت هذه الحركات بعد هذه المراحل في ثلاث وجهات كبرى تتلخص فيها جميع منازع الإسلام ، أنضجتها الأحداث ، وأبرزها الجهاد الطويل في سبيل تحرير الفكر الإسلامي من أغلال القرون القديمة وأغلال التقليد للفكر الأوربي ، وتكوين شخصية مستقلة له يحقق بها حريته وحرية أوطانه

هذه الوجهات هي : وحدة الإسلام ، ووحدة الأديان ، والوحدة الانسانية ؛

تأتى بعضها من وراء بعض ، وتكمل الواحدة الأخرى

وقد تثير ملابسات الأحوال الحاضرة شيئاً من الاستغراب عند قوم ، وقد تثير شيئاً من الإنكار عند آخرين فى أمر هذه الوجهات الثلاث فى الإسلام اليوم

ومن حق الذين يقفون عند بعض الظواهر دون بعض ، ويهملون التأمل فى سلسلة الحركات الإسلامية منذ قرنين ومناشئها ومناحيها والينابيع التى ترويها وتبعث فيها الحياة ، وما أصابت من توفيق ملحوظ ونجاح غير منزور . . . أقول : من حق هؤلاء جميعاً أن يستغربوا ذلك ، أو أن ينكروه . ولكن الباحثين المتعمقين ممن يرصدون حركات المجتمع الإسلامى وتطوراته ، لا يملكون غير التسليم لهذا الذى أذهب إليه

ويقرر « ماسينيون » أن هناك ظاهرةً كثيراً ما يهملها الباحثون ، وهى أن الحركات الإسلامية تستعد فى خفاء وصمت ، وتندلع فَجْأَةً دون أن يسبقها نذير يمكن أن يرى ، وبعبارة اصطلاحية أكثر دقةً ـ كما يقول ـ نستطيع تحليل ما يقع بأن أول الأدوار هو « دور النداء الباطن » الذى يهيب بالضمير الاجتماعى وإن ظلّ فى حالة هدوء ظاهرى ، أو ظلّ كما يعبر عنه فى عرف طوائف مختلفة فى حالة قعود أو تقية أو كتمان . وإذا نضج هذا النداء ، تبعه الدور الثانى توًّا ، وهو « دور الدعوة » لاسترداد ما تعطل من حقوق الشريعة ، وسبيل ذلك الجهادُ . وهذا هو المفهوم الذى يصدق على جميع الحركات عند مختلف الجماعات وفى مختلف الأوقات

ولا جدال فى أن اليَقَظَة الإسلامية الحديثة قد اجتازت « دور النداء الباطن » ، ودخلت فى « دور الدعوة والتنظيم » فى سلسلة من الحركات قامت فى مختلف أقطار الإسلام من الساحل الأطلسى إلى أرخبيل الملايو ، وسارت قُدُماً نحو وجهتها لا تبالى ما تأخذها به أوربة من سياسات الدس أو البطش أو الإرهاب ،

فنمت نمواً خطير الشأن فى بعض الجهات ، ودخلت فى طور الاكتمال فى بعض آخر ، وخصائصُها فى كل جهة متشابهة ، وآثارها متماثلة : لأنها تنزع عن قوس واحدة ، وترمى نحو هدف واحد ، ولا مفر من أن تتلاقى يوماً ما عند نظام موحد لدولة واحدة . وربما لا يعجب ذلك الدوائر السياسية الأوربية ، أو القانطين من ساسة الشرق ، أو بعض ذوى الأغراض من أجراء الاستعمار ونحوهم ، ولكن الواقع هو هذا ، لا ما يشتهيه هؤلاء

أما الوجهة إلى الوحدة الإسلامية ، فإنها ترجع بطبيعتها إلى الأصل الأعظم الذى بُنى عليه الإسلام ، وهو عقيدة التوحيد ، وإن شئت قلتُ وحدة العقيدة . ذلك أن علاقة وحدة العقيدة بوحدة الأمة هى علاقة المسبب بالسبب والنتيجة بالمقدمات ، فعقيدة التوحيد ألهمت العرب فكرة الحرية الشخصية والدينية ، وحررت عقولهم من الوثنيات الموروثة ، وجمعتهم على عقيدة واحدة ترفع النفوس عن الخضوع لكائن من كان إلا للواحد الديان

ووحدة العقيدة الإسلامية كونت وحدة الأمة الإسلامية ، وحققت للإسلام الظهورَ والاعتلاء ، وللمسلمين الاستخلافَ فى الأرض . وفى تاريخ الصدر الأول ، وتكوين دولةِ الإسلام ، شواهد ذلك وبيّناته

وافتراق العقيدة من بعدُ وما نتج عنه من تبدل حالة المسلمين العقلية والنفسية والأخلاقية ، أفسد مقومات الحياة الإسلامية ، ورجع بالمسلمين من الإسلام إلى الجاهلية جهلا وانقساماً وجموداً وموتَ همم ، وأطمع متوثبة الشعوب أن يطغوا عليهم ويستعبدوهم فى عقر أوطانهم

وهذا ما جعل جميع الحركات الإسلامية تصرف جهدها إلى هذا الأصل الأعظم وتوطيد بناء المجتمع الحديث عليه ، فعمدت – ولا تزال – إلى خطة ناجحة فى توحيد العقيدة وفى تربيتها ، من أظهر مميزاتها : تشخيصُ حقيقة الإسلام

بتطهيره مما ألصقته به الفرق المبتدعة والمذاهب الضالة ، والدعوةُ إلى الاجتماع على القرآن اجتماعاً تبطل به هذه المذاهب قديمها وحديثها جملة ، وتتوحد العقيدة والأخلاق وجميع نظم الحياة ، وتعلو الأخوة الإسلامية ، وتكون حدودُ الإسلام هى وطن المسلمين ، إنما المؤمنون إخوة والمؤمنون بعضهم أولياء بعض ، وما وَسِعَ السلفَ الصالح وكان مبعث عزهم وعلوهم ، يسع المسلمين فى كل مكان وزمان ، ويكون مصدراً لاستعادة ما أضاعوه من المجد والسلطان

وقد آتت هذه الدعوة أُكُلَها الطيّب ، فزالت تلك الحدّةُ التى اتسم بها أهل المذاهب الإسلامية القدماء ، وضعف الشعور بما كانوا يحسونه من الفوارق من قبلُ ، وظهرت فى المجتمعات الإسلامية طلائع قوية للتسامح والتعاون على الخير فى شؤون الحياة ، وخاصة فى منازع الوطنية والاستقلال ، مع ما ينفثه الاستعمار من سمومه لتفريق الصفوف على يد أجرائه ووكلائه ، وبدا واضحاً من أثرها فى توجيه جمهرة المسلمين فى كل مكان نحو التكتل وجعل الإسلام الصحيح أساساً للمجتمع الحديث ، أنَّ حركة الوحدة الإسلامية قد أصبحت من أهم الحركات فى العالم الإسلامى اليوم

ولا يضعف من أمرها أفراد مبعثرون هنا وهناك يقفون على طرفيها ولا يندمجون فيها . وهؤلاء هم نَمَطان من الناس : بعض عناصر الطبقة المترفة ونحوها ممن أسرتهم الشهوات وعبدوا المادة وفترت عزائمهم فى دينهم وأهملوا أوامره ونواهيه ، وعناصر أخرى جاهلة كل الجهل يسمون أنفسهم مسلمين ولكنهم قد حيل بينهم وبين الإسلام الصحيح ولا يخرج دينهم عن مجموعة من الخرافات الساذجة وأباطيل الوثنية . ومثل أولئك وهؤلاء فى خضم يموج بخمسمائة مليون نسمة لا يُعتدُّ بهم فى الوزن الصحيح للقضايا الكبرى

أما الحركات الوطنية المحلية ، التى تسمى قومية أحياناً ، فهى شعور وطنى

محض أرهف من حده الاستعمار السياسى والاقتصادى يتجه إلى اعادة تنظيم الجماعات ويستنفر القوى الكامنة لمقاومته والتخلص من جبروته . فهى بسبيل من وجهة الإسلام فى هذا الشأن ، وليست عصبية بين الشعوب الإسلامية ، ولا هى كعقيدة الجنس النظرية التى قامت عليها حياة أوربة إلى عهد قريب

والمعروف من تاريخها وخصائصها أنها حركات تتضافر مع الإسلام فى وجه الاستعمار ، فى كل مكان ، وهى وحدات ، نعم وحدات أحدثها عدوان الدول الأوربية على العالم الإسلامى واقتطاعُ كل دولة جزءاً منه تتحكم فيه ، لا أنها هى كذلك أو تريد أن تكون كذلك . وهى كلها تكافح هذه الدول الباغية لتتحرر من سلطانها ، ووجهتها جميعاً إلى الوحدة الكبرى الشاملة من غير شك ولا جدال

والمراقبون الأوربيون يعترفون بأن شعور المسلمين بالوحدة سلاح يدافعون به عن أنفسهم ، ولن ينبذوه مستخفين به ، لأنه يسبغ القوة على هذه الوحدات المتفرقة ، ويلاحظون أن النزعات المنتشرة تسير بقوة فى سبيل الاحتفاظ بأساس إسلامى للقوميات الجديدة ، وأن السعى لتقويتها هو من أهم الحركات فى العالم الإسلامى اليوم

ويقرر « جِب » أن ثورة المسلمين على مبادىء الحضارة الأوربية التى تعارض الأخلاق ستدفع المثقفين منهم حتما إلى أن يزدادوا إصراراً على الدعوة إلى الأخلاق السامية ، وأن يصروا على أصل الإخاء الإنسانى الذى هو أساس الأخلاق الاجتماعية فى الإسلام

وان النزعة الإسلامية آخذة فى القوة على أسس أخلاقية ، ولا سيما مع تزايد النفوذ السياسى للطبقة الوسطى التى أثرت فيها على الدوام تعاليم الإسلام الخلقية . وكلما زادت روح الديمقراطية فى القوميات المقبلة ، زاد سلطان أصول الإسلام على العلاقات السياسية

ويقول : « إن عاطفة الوحدة لَتَدُلُّ دِلالةً محسوسة على وجودها بطريقة مطردة رائعة ، فلا تمر حادثة تمس حياة العالم الإسلامى من غير تعليق حماسى حاد فى صحافة تذيع فى نصف آسية وإفريقية . وحين تأخذ هذه الحوادث شكلا خطيراً سواء فى مراكش أو ليبيا أو فلسطين أو الهند أو أندونيسيا تأتى قرارات الاحتجاج من كل فج وكلها متشابهة فى اللهجة بل فى العبارة . وليس عهدنا بعيداً بالجزء الأكبر من العالم الإسلامى حينما كان يخيل لمن يراه أنه فى سبات عميق ، حتى حسبه بعضُنا قد فقد الحياة . فأما اليوم فإن حادثة صغيرة مثل قتل الشهيد عمر المختار تهز ما بين مراكش وجاوة ، وكأنها صدمة كهربيّة ، وتولد تياراً من السخط الملتهب . حقاً ، إن ذلك الشعور المتولد يخمد سريعاً ، ولكن تراكم أثر تلك الصدمات سيجعل رد الفعل أكثر قوة ، وسيزيد العالم الإسلامى شعوراً بوجوده »

وأقول : إن هذا الشعور قد بلغ من نفوس الشعوب الإسلامية غايته ، فهم يشعرون أنه ليست هنالك شعوب إسلامية ، ولكن أمة إسلامية ، وطنها حدود الإسلام

وبهذا الشعور بدأت الحكومات الإسلامية تحل ما عسى أن يحدث بينها من وجوه الخلاف . ولا نحسب أن أمة من هذه الأمم الأوربية تنازعت وأمة أخرى أمراً بينهما ، ثم استطاعت أن تنزل عن أحقادها وتِراتها ، أو تحسم نزاعها بزيارة يقوم بها ملكها لتلك الدولة أو يقوم بها وفد أهلى لا صبغة رسمية له ، كالذى يستطيعه ملوك المسلمين ووفودهم فى هذا العصر حين يقع بين دول الإسلام الحاضرة شيء من الخلاف كما يقع فى العادة بين الأخ وأخيه . ولست أذكرُ ناسياً حين أذكر كيف ضرب الملك « فيصل » المثل بنزوله عن تِراته عند الملك « عبد العزيز السعود » فذهب إليه يصالحه ويشاوره فيما فيه خير العرب والمسلمين ، وكيف زار إنبراطورَ إيران لحسم بزيارته النزاع الذى نشب بين العراق وحكومته

على بعض الحدود ، أو كيف أستطاع وفد أهلى أن يحسم النزاع بين اليمن والمملكة العربية السعودية فيرجع الجيش السعودى عن « صنعاء » بعد ما طرق أبوابها بتذكيره المتخاصمين بالأخوة الإسلامية وحقوقها فى رقاب المسلمين

وهذه الوجهة إلى الوحدة الإسلامية التى تظهر اليوم عند المسلمين هذا الظهور القوى من إدراكهم التام لحقيقة الموقف الذى وُضِعوا فيه ، تصحبها فى المجتمع الإسلامى فى الوقت نفسه ظاهرة رائعة من وجهة الإسلام إلى توثيق الصلة بينه وبين الأديان الأخرى . وهى وجهة قديمة معروفة من أصول الشريعة وسيرة رسول الإسلام والتاريخ الإسلامى ، يحسن بنا أن نقف عندها وقفة قصيرة ، ثم نعرض لما عراها من بعد ، ثم كيف عادت إلى الظهور فى هذا العصر ، لتكون مناشئها بينة ، ولئلا يحسبها المتأثرون بالسياسات التى غرستها يد أوربة فى الشرق « مفارقة » لا تنسجم مع الاندفاع إلى الوحدة الإسلامية

فمن المعلوم بالضرورة من الدين أن الإسلام إنما هو دعوة إلى الإيمان بالله الواحد الخالق ، ورسالة مكملة للشرائع السابقة ومعيدة للحنيفية الفطرية التى تستند إلى وحدة الله ، وتترتب عليها وحدة خلقه . يقول القرآن : ﴿ وأنزلنا إليك الكتابَ بالحقّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكتاب ومهيمناً عليه ﴾ ، ويقول : « شَرَعَ لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدينَ ولا تتفرقوا فيه ، كَبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ . ولم يختلف الرسول ﷺ ، مع أهل الكتاب إلا حيث كان تنزيه الخالق موضع شك ، وقد كان كثير التسامح معهم رفيع الأدب فى مجادلتهم ، يقول القرآن : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾ ، ويقول فى النصارى : ﴿ ولَتَجِدَنَّ أقربَهم مودّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً ، وأنهم لا يستكبرون ﴾ ، ويقول فى الملل الكتابية : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر

وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون » .
وبالإيمان بالله وحده لا شريك له تتساوى عنــــده القبائل والشعوب والأديان والرسل ، لقوله تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون ﴾

وسيرة رسول الإسلام مع أهل الأديان جميعاً ، سيرة كلّها رفق وإحسان وعدل ، لأن دينه لا ينظر إلى غيره من الأديان إلا هذه النظرة الجامعة . وقد وضع أساساً صالحاً عادلا يحدد موقفه من أهلها جميعاً ، فقال : ﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ﴾ ، فما حاد عن هذا الأساس . وكان من بينات عطفه أن أصهر إلى النصارى ، فتزوج من قبطية اسمها « مارية » كانت أم المؤمنين وأم ولده « إبراهيم » ، كما تزوج من « صفية » وهى يهودية ، ولم تفته فرصة دون أن يوصى بأهل الكتاب خيراً

وفتح المسلمون البلاد التى كانوا يقطنونها فما أطاحوا بحقوق أحد منهم ، وكان من أصول السياسة الإسلامية المساواة المطلقة بين المسلم وغير المسلم حتى فى بيت مال المسلمين ، فهو ليس بمقصور على معاونة المسلم وحده ، بل يُشرِكُ فيه غير المسلم بلا قيد ولا شرط . وفى قِصاص « عمر بن الخطاب » من ابنه لأجل حق امرأة مسيحية قبطية ، أكبر الشواهد على العدالة الإسلامية ، وفى قوله : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ؟ كل مقاصد الإسلام من الحرية والإخاء والمساواة

ويعترف السير « توماس آرنولد » فى كتابه « انتشار الإسلام » بأن « الكنيسة المسيحية قويت وتقدمت فى رعاية المسلمين وحكمهم ، وأن جميع المذاهب المسيحية كانت تتمتع بالرعاية والتسامح من الحكام المسلمين على حد سواء ، بل

هؤلاء الحكام هم الذين يمنعون أضطهاد بعض المسيحيين لبعض ، ويكفلون الحرية الدينية للجميع » ، ويقول : « تحت نظام من الأمن يكفل حرية الحياة والملك والعقيدة الدينية ، تمتع المسيحيون — ولا سيما فى المدن — بثروات ونجاح كبير فى عصور الإسلام الأولى ، فكان منهم أرباب النفوذ الواسع فى قصور الخلفاء »

ومن المؤسف حقاً أن قابلت أوربة هذه السماحة بالسماجة ، وحملتها سياساتها « الميكيافيلية » فى عهودها الطوال منذ العصور القديمة إلى هذا العصر على أرتكاب موبقات وفظائع ومذابح لا حصر لها لم تعرفها وحوش الغاب ، وعبثت بوحدة الشرق باسم حماية الامتيازات وحقوق الأقليات ، وأجرت من دماء المسلمين وغير المسلمين أنهاراً ، حتى أصحرت نياتها للجميع عن الاستعباد والاستعمار ، فانجلت الغشاوات عن الأبصار ، وأدركت الأقليات من الحقيقة ما أدركته الأكثرية

لذلك كان على الإسلام فى غمرة صراعه للاستعمار أن يصرّح عن محضه ، ويكشف عن وجهته ونيته غيرَ متملّق ولا مداهن . فوضع أمام الأعين المبصرة والقلوب الواعية كتابه الصادق ، وتاريخه الناطق ، وشعوره السليم . فصدقته غير مترددة ولا متشككة تصديقاً لا يتطرق الشك إلى عاطفته الخالصة النزيهة ، وأجابته على تسامحه وإخلاصه فأيّدت قاعدة أعتراف الدولة بالإسلام ديناً رسمياً فى مصر وسورية والعراق ، وظهرت رايات المتظاهرين فى الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ، وقد نُسجت خيوطها أهلّةً وصلباناً ، وهال « مدام جهان دى فراى Madame Jehan d,Ivray» أن شهدت قسيسين أقباطاً يعظون فى المساجد ، وعلماء من شيوخ المسلمين يعظون فى الكنائس طالبة من السوريين والموارنة والمسلمين ، وسيدات مصريات وتركيات جميعاً على وئام وثيق واتحاد مكين فى سبيل القضية الوطنية ، وقالت : انها قد أصبحت تشهد من ذلك العجائب والغرائب فى هذه الديار

وقوى هذا التعاون فى أوطان الهلال الخصيب ، وخاصة فى فلسطين ، حيث ظهرت الصهيونية تريد الاستيلاء على المسلمين والمسيحيين الشرقيين معاً ، ويلاحظ « ج . كمبفماير » أن تجاوب المشاعر بين المسلمين والمسيحيين والشرقيين كلاً من الشعور الإسلامى والمسيحى يؤثر فى تطور الآخر تأثيراً خفياً ، ولكنه قوى . وقد دهش « الأب ف . ت . بنارت » للعلاقات الودية بين المسلمين والمسيحيين فى العراق ، وأعجبه غاية الإعجاب ، وهو يتحدث عن المنشآت الإسلامية الحديثة التى تقص الصحف أمرها ، أن رأى المسلمين اليوم فى العراق يحذون حذو المصريين ويؤسسون بمساعى بعض العلماء هذه الجمعيات الإسلامية فى حماسة من غير أن تمس المسيحيين بكلمة جفاء واحدة

ونحن نرى فى الجانب المسيحى الأدباء المسيحيين العرب يمازجون بين عواطف الإسلام والعروبة ، ويهذبون بأدبهم المشاعر ، ويعملون على تقريب الوجهات كما يعمل عليها المسلمون ، ولهم الآيات البينات فى التغنى بمحاسن الحضارة الإسلامية ، ومنهم من فنى فى حبِّ محمد رسول الإسلام ، مثل « مارون عَبُّود » الذى أبت عروبته إلا أن يتيمن فيسمى أبنه باسم بانيها الأول ، و « لبيب الرياشى » الذى وصف فضائل محمد بما لم ينهض بمثله كثير من المسلمين ، وأمثال شبلى ملاط والياس فاعور ونجيب نصار وجورج سلستى وغيرهم ، وكلهم أشاد فى شعره ونثره بمحمد ، واستعذب لغة القرآن

ولست أدرى ماذا بقى بين هذه النفسية المنصفة الصافية وبين الإسلام ؟ ومن المسلمين من فتنتهم أوربة عن دينهم ، فما آلتزموا فروضه وأوامره ، ولا ظفر منهم محمد ولا العروبة ولا حضارة الإسلام بكلمة إطراء مع تميزهم على نظرائهم بالبيان

كذلك التقى الإسلام بالمسيحية فى هذا العصر ، وأعادت مواقف أحدهما من الآخر إلى الأذهان مواقف العرب المسيحيين فى عهد الفتوحات الأولى ، وقتالهم

فى الصفوف الإسلامية انتصاراً لمروبتهم فى مثل « واقعة الجسر » و « واقعة البويب » ، وعاد الطابع القديم الذى طبع به الإسلام الشعوب على التعاطف والتراحم والمودّات كأحسن ما تطمع به الآمال

ونحن نعتقد أن هذه الطلائع من تصفية العقول وتزكية الضمائر والرغبة الصادقة فى اتقاء وجهات النظر عند أصول الأديان جميعاً ، وهى الإيمان بالله وحده لا شريك له ، ستنقل الناس حتما — كلما ازدادوا وعياً وإدراكاً لأثر هذا الأصل فى الحياة البشرية — إلى الأفق الرحب الذى يليق بالإنسانية أن تنتقل بفطرتها إليه ، ألا وهو الإخاء الإنسانى العام

فلا مرية فى أن بنيان المدنية الإنسانية الحق إنما يقوم على هذين العمودين : الإيمان بالله ، والأخوة الانسانية الجامعة فى عالم واحد

والمتأمل فى الإسلام ، يجده حريصاً عليهما أشد الحرص . فهو قد دعا إلى التوحيد الخالص ، وبالغ فى الدعوة إليه والتوكيد عليه كما بالغ فى احترام رسالات الله التى دعت الإنسانية إلى هذا التوحيد ، ليكون الإيمان بالله واحداً فى حقيقته ومظهره ، ثم عطف على الروابط الإنسانية فركزها فى أساس واحد ، هو بديهى جداً وغامض جداً فى وقت واحد ، هو غامض لأن الناس ابتعدوا عنه كثيراً ، ولأنه يغيب عن الأذهان فى غمرة هذا الصراع والتكالب بنوازع الجهل والعصبيات، وهو بديهى لأنه قريب من نفس كل إنسان لو فكر الإنسان فى نفسه وانسلخ من نوازعه الشريرة لحظة واحدة ، وهو بديهى فالناس جميعاً من نفس واحدة ، وانهم لذلك أسرة متشابكة الأجزاء متكافلة الأعضاء وليس بينهم إلا قرابة تحترم ، ورحم توصل . . . ولإبقاء هذا الأصل سليما أيضاً أمر الإسلام باتقاء الله فيه بالاحترام والتواصل والتعاون والمحبة ، لينتهوا جميعاً إلى عالم واحد لا يستعلى فيه قوى على ضعيف كما نشؤوا من نفس واحدة ، وليعيشوا سعداء بالرحمة والحنان

والحب ، وذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناسُ اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلَق منها زوجها ، وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتّقوا الله الذى تَساءلُونَ به والأرحام ، إنّ الله كان عليكم رقيباً ﴾

على هذا النحو أو على هذا الأساس صاغ الإسلام مدنيته ، وحقق جَمْعَ الأجناس وتفاهمها وتعاونها . وله فى ذلك ماض مجيد مشهور . ويعترف رجال الدراسات الإسلامية من الأوربيين بأنه « لا توجد مدنية أخرى سُجل لها من النجاح فى أن تجمع كثيراً من أجناس الإنسان المختلفة مع التسوية بينهم فى المكانة والعمل وتهيئة الفرص — كما سجل للإسلام »

ويلاحظون « أن الجماعات الإسلامية العظيمة فى إفريقيه والهند واندونيسيا ، والجماعات الصغيرة فى الصين ، والجماعات الصغرى فى اليابان : كلها تبين أن الإسلام لا تزال له القوة على أن يتألف العناصر التى لا سبيل إلى التوفيق بينها بسبب الجنس والتقاليد » ، ويرون أنه إذا لم يكن بدّ من أن يحل التعاون محل الشقاق بين المجتمعات العظيمة فى الشرق والغرب ، فإن وساطة الإسلام شرط لا بد منه ؛ لأن فى يده إلى حد كبير حلَّ المعضلة التى تواجه أوربة فى علاقاتها مع الشرق ، وإذا اتحدا زاد الأمل زيادة لا حد لها فى بلوغ نتيجة سليمة »

على هذا النحو صاغ الإسلام المدنية الإنسانية ، وعلى هذا النحو يعنى مفكروه فى هذا العصر بإظهار وجهته الكبرى إليها ، لا يألون فى عرض حقائقها وبيان مناهجها والموازنة بين الأصول التى تقوم عليها الحضارة الإسلامية والأصول التى تقوم عليها حضارة الغرب ، لينقلوها من التراث العقلىّ المجرد إلى الميدان العلمىّ الواقعى ، ولينقذوا هذه الإنسانية المعذبة التى تضطرب أحشاؤها بالرعب ، وتضطرم قلوبها بالأحقاد الآكلة ، ويُعِدّ بعضها لبعض أفظع ما يسمو إليه الخيال المجنح من صور أدوات التدمير والإفناء ، حتى أصبح السلام حلماً لا سبيل إلى تحقيقه ، وأمنية معسولة ولكنها برق خُلَّبٌ وسراب كَذُوب

والواقع أن الأساس الذى تقوم عليه حضارة الغرب لا يمكن أن يُسلم إلى غير هذه النتائج ، وستظل الإنسانية تعانى أزماتها الحاضرة ما دام هذا الأساس هو الذى يتصرف بالعقول والنفوس ، ويخلق فيها الظمأ القاتل إلى المال ، ويهيج التنافس والنضال للحصول عليه ، مسقطاً للمعانى الإنسانية السامية والمثل الخلقية الكريمة ، مُثُل الإيثار والمحبة والأخوة ، فلا يكاد يمسكها ، ولا تكاد تعلق به

ومن هنا كان فى أوربة هذا التناحر الذى لم تعرف الإنسانية فى عصورها الطوال أوحش ولا أضرى ولا أفتك منه ، حتى عمّ بلاؤه الأرض كلها ، لم يسلم منه القابعون فى قلل هملايا ولا المنعزلون فى سهوب إفريقية

يصف الأستاذ « جود » الفيلسوف البريطانى المعاصر فى كتاب له تطيّره مما أنزلقت إليه أوربة ، فيقول : « إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة ، ولكننا نستعملها بعقول الأطفال والوحوش » ، ويقول : « إن هذا التفاوت بين فتوحنا العلمية المدهشة وطفولتنا الاجتماعية المخجلة ، نواجهه عند كل منعطف ومنعرج ، نحن نستطيع أن نتحدث من وراء القارات والبحار ، ونرسل الصور بالبرق ، وننصب اللاسلكى فى بيوتنا ، ونسمع فى سيلان دقات (Big Ben) الساعة العظمى تضرب فى لندن ، ونركب فوق الأرض والبحر وتحتها ، والأطفال يتحدثون على الاسلاك البرقية ، وآلات الكتابة صامتة ، وتملأ الاسنان من غير إيجاع ، والزروع تنمى بالكهربا ، والشوارع تفرش بالمطاط ، وأشعة رونتجن (X-rays) نوافذ نطل منها على داخل أبداننا ، والصور المتحركة تتكلم وتغنى ، ويكشف عن المجرمين والمغتالين باللاسلكية ، والغواصات تذهب إلى القطب الشمالى ، والطيارات تطير إلى القطب الجنوبى . ومع ذلك كله لا نقدر فى وسط مدننا الكبرى أن نخصص رحبة يلعب فيها أطفال الفقراء فى راحة وسلام ، ونتيجة ذلك أنا نقتل منهم ألفين ، ونجرح منهم تسعين ألفاً سنوياً » . قال : وقال لى فيلسوف هندى فى انتقاده اللاذع لإطرائى لعجائب حضارتنا — وكان بعض سواق

السيارات قد تنجح فى قطع ثلاثمائة ميل أو أربعمائة فى ساعة على رمال Pendine ، وطارت طائرة من موسكو إلى نيويورك فى عشرين أو خمسين ساعة (لا أذكر) — « نعم ، إنكم تقدرون أن تطيروا فى الهواء كالطيور ، وتسبحوا فى الماء كالسمك ، ولكنكم إلى الآن لا تعرفون كيف تمشون على الأرض » !

والإسلام حين ينظر إلى الغرب فيجد فيه هذا التفاوت العظيم بين ارتقائه المادى هذا الارتقاء الذى لا مطمح وراءه ، وبين انحطاطه فى الجانب الروحى هذا الانحطاط الذى جعله يستعمل قواه بعقول الأطفال والوحوش كما يقول الفيلسوف البريطانى ، ولم يعلمه كيف يمشى على الأرض كما يقول الفيلسوف الهندى . . . يأسى غاية الأسى على المصير الذى يوجه الغرب العالم كله إليه ، ويتوجع كل التوجع أن يراه وهو يقطع أرحامه كما يقطع رحم الإنسانية فى كل مكان ، ولا تبالى دوله الكبرى — فى سبيل نفسها وحدها — أن تتفق فتطرد العرب الفلسطينيين الأبرار من مواطن أجدادهم وآبائهم باليهود الأشرار الذين يمدونها بالمال إعانة لها على إنتاج آلات التدمير والخراب ، أو أن تزيل أمة من الوجود بقذيفة واحدة ينطلق منها مليون عزرائيل يتخطفون فى لحظة أرواح ملايين من الشيوخ العجاف والأوانس اللطاف والأطفال الملائكة الأبرار ، فلا تبقى على بناء مشيد ولا زرع قائم ولا حيوان من هذا الحيوان الأعجم الذى يؤسس الغربيون جمعيات الرفق به من أذى الإنسان !

والإسلام بين توجعه وأساه ، يتحرك ويتحفز ، وبه من الغرب أغلالٌ ، ليحطمها ، ولكن لا تحطيم من يريد أن يثأر وينتقم ، لأن العفو عنده أساس معاملاته ، وهو أقرب للتقوى ، بل تحطيم من يغار على كرامته أن تذال ، وعزته أن تذلّ ، ويقظته أن تخدّر وتنوّم وتبعد عن واقع الحياة ، وقدرته أن تكبّل وتحدّ بنوازع الأثرة والطغيان . . . ليعود مرة ثانية ، فيصوغ إرادته بنشر روح

الإخوة الإنسانية فى عالم واحد ، دعامتهُ نظام روحى يكون أساساً للنظام التهذيبى وأساساً لقواعد الخلق والعمل ، لا يضحى فيه بشىء من أصول الأخلاق فى سبيل التنظيم الاقتصادى ومعاملة الأفراد والجماعات

ويومئذ نسخّر هذه المصنوعات الجماد للخير وحده وللبشر كله ، بعقول الحكماء والإنسانيين لا بعقول الأطفال والوحوش ، وتتعلم أوربة حين تطير فى السماء كيف تمشى على الأرض ، ثم تسير ويسير ركب الإنسانية إلى سعادته المنشودة فى وئام ، وينعم الشرق والغرب جميعاً بنعمة السلام ، ويكون الدين كلّهُ لِله

المطبعة السلفية

